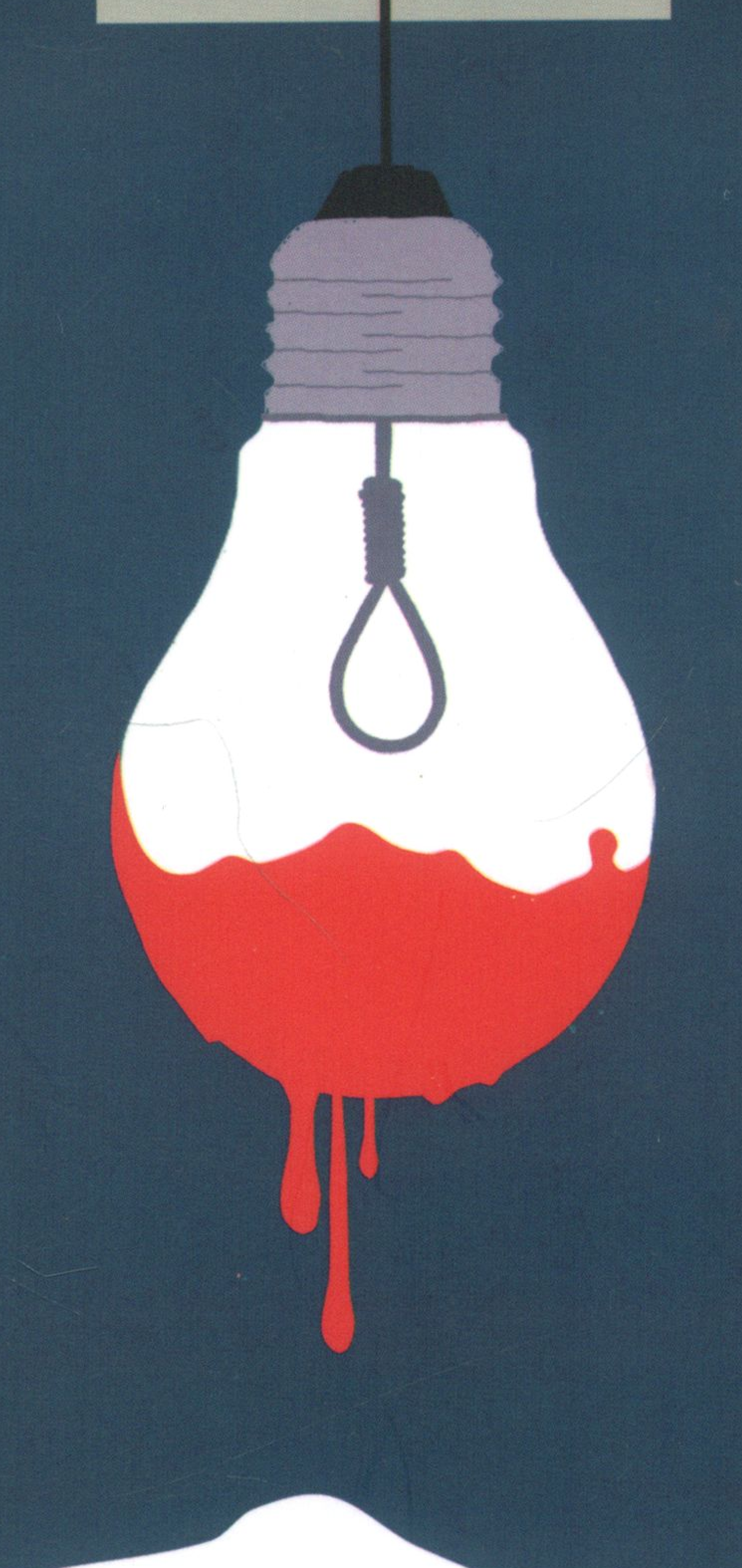


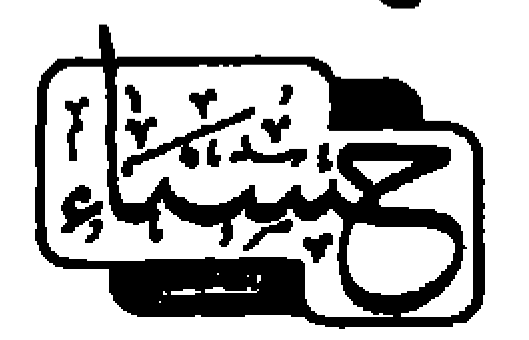
رواية

الثوابع

أحمد محمد زويل

التوابع

ديوى : 813
زويل ، أحمد محمد
التوابع / أحمد محمد زويل
الإسكندرية : حسناء للنشر
ط1 / 2015
95 ص ، 20 سم
تدمك : 978-977-85187-7-1
1- قصص
2- التوابع
أ- أحمد محمد زويل
رقم الإيداع : 2015 / 9474



الإسكندرية ، ج . م . ع
01018831361
01022842898
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

إهداء ٢٠١٦

دار حسناء

جمهورية مصر العربية

التوابــع

رواية

أحمد محمد زويل

إلى:

من حاول يوماً تغيير واقعه فتغير هو إلى الأبد .

شكر وتقدير إلى :

(أمى) اللى مش حيكفينى فيها ألف صفحة شُكر على كُل اللى عملته وبتعمله عشانى .

(أبى) اللى حفضل شايل أفضاله حتى بعد الموت .

أصحابى وبدون ترتيب :

(أحمد الديب) ـ (كريم) ـ (أمنية) ـ (أحمد على) ـ (أميرة) ـ (أمين) ـ (غادة) ـ (إسراء) ـ (أحمد شعبان)

شكراً عشان شجعتونى من أول ما كانت الرواية على ورق كشكول 40 صفحة ..ربنا يدىم اللى بيننا ☺

أصدقاء الكُلية كلهم بلا استثناء

وشلة 45 اللى أساميهم كلها غريبة !

والكُتاب :

محمد طارق

إنجى مطاوع

عبد الحميد عبد اللطيف

أتمنى لكم دوام النجاح ☺

التوابـــع

من يرفض الواقع يموت غرقاً فيه !

{1}

فتحت باب شقتى القديمة فأصدر الباب صريراً بسيطاً..أدخلت أكياس الطعام والشراب وحقيبتى التى بها ملابس وبعض الأشياء التى تكفينى أسبوعًا على أقل تقدير..وضغطت على مفتاح الإضاءة ليطرد النور الظلام الساكن فى أركان الشقة بهدوء ولطف..كنت قد أقنعت والدى سلفاً أننى سأقيم أسبوعاً عند أحد أصدقائى..كِذبة بيضاء تسمح لى بالاختلاء بنفسى بضعة أيام حتى أبحث بنفسى عن سبب تتابع الأحداث الأخيرة بتلك السرعة. اندفعت نحو الأريكة أمامى وجلست أتأمل فى هدوء الشقة التى هجرناها منذ سنوات..كانت الحوائط تَطرد الطِلاء الأزرق ببطء..وخشب الشبابيك يعود للونه الأصلى مع بعض السَواد وخيوط العناكب التى اتخذت أطرافه عُشاً..لو كُنت قد قررت الاختلاء بنفسى منذ شهرين لكُنت قد صرفت النظر عن الفكرة بمجرد رؤية حالة الشقة حالياً.

اتجهت نحو الغُرفة الصغيرة التى كانت غُرفتى سابقاً..وأخرجت منها المرآة الكبيرة وأسندها على الحائط أمام الأريكة وسحبت الطاولة الصغيرة أمامى..جلست على الأريكة ووضعت يدى فى جيبى وأخرجت علبة سجائرى والتقطت منها سيجارة دهستها بين شفتاى واشعلتها، وصرت أتأمل شكلى فى المرآة التى يتحول لونها تدريجياً إلى الأصفر الفاتح..صار وجهى أكثر اسمراراً..وحول عينيّ سواد يشكو من قِلة النوم..وقناع من الإرهاق يلتصق بوجهى وتشتكى ملامحى منه..أخرجت بعض الأوراق البيضاء من حقيبتى ووضعتها أمامى على الطاولة بشكل عشوائى وتناولتُ قلماً أسود، ونويت أن أقص أحداث الشهرين السابقين على الورق.

"لعله يظهر فى أية لحظة ! ..لعل ما أفعله الآن يفتح صندوق إجاباته ليسد جوع أسئلتى".

تناولت القلم بين أصابعى وبدأت بالكتابة..

قبل شهرين ــ لا أذكر التاريخ تحديداً ــ كُنت فى طريقى لبيت "مصطفى" صديقى منذُ الطُفولة..كان منزل مُصطفى يبعُد عن

مترلى بِبضعة شوارع..اجتزت أول شارعين لأصل لشارع عمومى لا تمر منه السّيارات إلا قليلاً..ما إن دخلت الشارع حتى شَممت تِلك الرائحة،..كانت الرائحة ذكية كعِطر فرنسى أو كعطر زهرة حديثة النمو..صرت أتلفت حولى أبحث عن مصدر الرائحة لأجد نفسى أتابع قطة تعبُر الطريق..كانت قطة بيضاء جميلة حول عينها اليسرى حلقة بسواد الليل تمتد حتى ذيلها بشرائط سوداء على فروها الناعمة ..كان منظرها غريباً وجذاباً فى الوقت ذاته..وقفت أتابعها بعض الوقت ثم أحسست أنها مصدر الرائحة الذكية..كانت الرائحة تنبعث منها بقوة..كان الطريق خالياً تماماً من السيارات وبدأت القطة بعبور الشارع بهدوء، حتى لمحت تلك السيارة السوداء الكبيرة قادمة ناحيتها بسرعة كبيرة..تسمرت مكانى مندهشاً أتابع ما يحدث بشغف وفضول وخوف وذهول معاً..صارت القطة بمُنتصف الشارع تقريباً واقتربت السيارة أكثر فأكثر حتى تَقلص الفارق بينهما إلى ما يُقارب المتر..لم تُهدئ السيارة من سرعتها لحظة واحدة..حتى عبرت فوق القطة..انتابتنى القُشعريرة لثانية وصرت أتخيل مَنظر القطة المدهوسة أمامى..ولكنى فوجئت أكثر عندما لم أرَ القطة ! ..ثم التفت إلى السيارة فلم أجدها..مسحت

بعينيّ الشارع أبحث عنها بلا جدوى. اختفت القطة والسيارة ..كأن شيئًا لم يكن!..ولكن لم تختفِ الرائحة،..خُيل إليّ لِلحظة أن السيارة سَحبت القطة معها، ولكنني سرعان ما طردت الفكرة من رأسي..التفتُ لأجد أحد عُمال النظافة يقوم بعمله خلفى..اتجهت له بخطوات ثابتة وقلت فى لهجة هادئة:

- لو سمحت..

- أؤمرنى يا أستاذ؟

- فى قطة بِيضة وحوالين عنيها الشمال إسود..كانت بِتعدى الشارع..حَضرتك شُفتها؟

- قطة حوالين عنيها اسود!..وده من السَحاير ولا القهوة؟

استفزتنى لهجته الساخرة ولكن، سؤالى كان أسخف بمراحل .. فابتسمت وقلت له:

- لامؤاخذة يا باشا.

أدرت وجهى وهممت باستئناف طريقى، ولكنى تذكرت السيارة فالتفت له مجدداً :

- طب حضرتك شُفت عربية سودة كبيرة عَدت مِن شوية؟

نظر لِى باستغراب .. وسألنى ساخراً :

- إنت شارب إيه؟

- لا أنا مش شارب .. أنا باتكلم جد !

- لا يا أستاذ مفيش عربيات عَدت..تُأمرنى بحاجة تانية؟!

قال جُملته الأخيرة بِضيق جَعلنى أتأسف له وأستَأنف طريقى فى هُدوء.

اختفت القطة والسيارة ولم تختفِ الرائحة الذكية .. لم تفارق أنفي لِساعات .. كُنت أظن أنها منبعثة من الشارع ولكنى عبرته بشوارع أخرى عَديدة وظلت الرائحة مُصاحبة لِى.

التقيتُ بمُصطفى فى إحدى الكافيهات بعد أن أقنعته بالنزول من بيته وجلسنا ساعتين نَحتسي الشاى المُصاحب لِبعض أصابع

النيكوتين (السجائر).. جلسنا قُرابة الساعتين و لمْ تُفارقني الرائحة كأنني اكتسبتُ صديقاً جديداً أو فَقدتُ حاسة الشَم أو أُستُبدِلت بتلك الرائحة..أخذتُ من مصُطفى عطره الذى يَحمله معه أينما ذَهب كأنه طالب يحمل حقيبته المَدرسية أينما ذَهب..وبدأت فى تَشممه ولكن بِلاجدوى.. لم أذكُر لِمصُطفى ما حَدث.. و لم أقُل لهُ أني لم اعُد أشِم غير هذه الرائحة الزكية.. وهَممتُ بِالعودة لِمنزلى. تَعمدتُ فى طريق عودتى أن أسلك نفس الشارع، وفى نفس المَكان .وجدتُ القطة ذاتها تَعبُر الطريق مُجدداً ..وكأن المَشهد يُعاد أمامى مَرة أُخرى.. وقفت مذهولاً لِلحظات ثُم تَابعتُ القطة مِن جديد وانتظرتُ السيارة السوداء حتى ظهرت مِن بَعيد قاصدةً القطة .. ولكن هَذه المرة دَهست السيارة القطة تحت عجلاتها..لأجدها أمامى جُثةً هَامدة مُهشمة ومَهروسة.. اقتربتُ مِنها خَائفاً ولامست جَسدها بِطرف حِذائى لأتأكد أنها لِيست أوهام.. وما إن شَعرتُ بِكُتلة جَسدها حتى انتفضتُ مُتراجعاً بعض الخطوات للوراء.. لأرى عَامل النظافة أمامى مُبتسماً وقال:

- إنتَ تَانى ! .. إنت اسمك إيه يا كابتن؟

- يُوسِف.

أجبته فى سُرعة وتِلقائية وَسط دَقات قَلبى المُتسارعة..وسُرعان ما عَلق قائلاً:

- عاشت الأسامى يابو خَليل.

قالها واقترب من القطة يَضعها فى كيس بِلاستيكي أسود لِيستأنِف عمله.. واستأنفتُ طريقى عَائداً لِمنزلي ولكن هناك شئ ناقص !! بدأتُ أتشمم يَديّ وملابسي.."لقد اختفت الرائحة" !

فى لحظة ما ستتمنى السيء فقط لتهرب من الأسوأ

{2}

تركتُ القلم جانباً وتوقفتُ عن الكِتابة لِبعض الوقت وأنا أنظر لِما كتبت حتى الآن.. كيف أتذكر كُل هذه الأحداث حتى الآن؟!.. هُناك دائماً ما لا يُنسى وهذا تفسيرى الوحيد.. أخذتُ شهيقاً عميقاً وأخرجته زفيراً مُعباً برائحة الدخان وقُمت من جلستى أُخرج بعض الطعام من الأكياس (عُلبة تونة_رغيفين) وبدأتُ فى الأكل وأنا أتابع نفسي من المرآة..كأنني أُشاهد فيلماً على شاشة عرض أمامى.. أنا المُمثل والمُشاهد الوحيد لى..تابعَت الأسئلة الصُعود لِعقلى دون أن تخرُج بما يُرضيها مِن إجابات..(لماذا حدث كُل هذا معى أنا بالذات؟..وهل حدث مع احد غيري؟..ومتى ستظهر؟).

بعد ان فَرغت من طعامى ألقيتُ بعلبة التونة الفارغة وبواقى الخبز فى كيس بلاستيكى أسود وربطته ووضعته بعيداً عن جلستى .. واتجهتُ للمطبخ وصنعت لى كوباً من الشاى بعد أن غسلت إبريق الشاى والكوب والملعقة جيداً .. واضفت له ثلاث ملاعق من السُكر الذى أحضرته معى فى حقيبتى..وضعت كوب الشاى أمامى وأشعلت سيجارة وبدأت فى تكملة ما كتبت..

عُدت إلى منزلى - بعد هذه الحادثة التى لم أجد لها تفسيراً - مُنهكاً من التفكير، دخلت غرفتى بعد إلقاء التحية على والدتى التى ظلت مُستيقظة حتى أتيت .. بدأت أعبثُ فى أشيائى القديمة باحثاً عن زُجاجات العِطر القديمة..وجدت ثلاث زجاجات ولا تحمل إحدها نفس الرائحة التى كانت مُلتصقة بأنفى منذ ساعة..تشممتُ جميع العطور فى المنزل مِن زجاجات عطور أبي وأمي وحتى عطورى الحديثة التى أُغرق نفسى بها يومياً بلا جدوى تُذكر، دخلت غرفتى مجدداً بعد رحلة البحث بين زجاجات العطر وقررت أن أنسى اليوم بأكمله..خلدت للنوم فربما النوم يُنسي قليلاً.. قال لى أحد أصدقائى سابقاً (إن النوم مُخدرات حلال!..فما إن تغِب عن الواقع

وتَدخل فى عالم الأحلام تَعش ساعاتٍ كأنها عُمر كامل ..وتستيقظ بعدها إلى كابوس الواقع مُنتشياً راغباً في العودة لعالم الأحلام .. وتنتظر جُرعتك الثانية من النوم بفارغ الصبر).

مر أسبوع نسيت فيه الموضوع تدريجياً..حتى صرت أتذكره كل فترة خلال ذلك الأسبوع.. لا أذكر أن شيئاً غريباً حدث فى تلك الفترة الزمنية القصيرة.. حتى ذلك اليوم الذى بدأ هادئاً حتى منتصفه تقريباً.. نادتنى والدتى وأعطتنى حقيبة نسائية صغيرة..طلبت مني أن أُعطيها لـــ "أم خالد" جارتنا فى الشَقة المُقابلة لنا..سألتها عن السبب فأجابتنى بأن أم خالد طلبتها منها بالأمس، أخذتُ الحقيبة منها وفَتحت باب المترل مُتجهاً ناحية مترل أم خالد. طَرقتُ الباب بِهدوء ثم جاءنى الرد من خلف الباب بعد ثوان:

- مين؟

- أنا يوسف..جاركُم.

- ثوانى طيب.

ثوانٍ وفتحت لى "أم خالد" الباب بعد أن ارتدت عباءة فوق ملابسها وطرحة على رأسها..كانت سيدة فى الخامسة والأربعين .. ألقيت عليها التحية فبادرتها بردها المُعتاد وسألتنى عن أحوالى وصحة والديّ فأجبتها مع الابتسامة الروتينية (الحمدلله)..مَددتُ يدى بالكيس الذى بداخله الحقيبة، ولكن توقفت عندما رأيت زوجها "عم ابراهيم" يسقط وراءها فى مُنتصف الصالة ولكنها لم تُهتم!.. أو ربما لم تَشعُر.. فقلت لها بِلهجة يملؤها القلق:

– هو عم إبراهيم ماله؟

– كويس الحمدلله.

قالتها بلهجة مُطمئنة كأن شيئًا لم يحدث للتو..ثم التقطت من يدى الكيس.. فأحسستُ أن هناك شيئًا ما خطأ ..فسألتها والدم يتسابق فى عروقىَ ودقات قلبى تستعد لِتسابق سُرعة الصوت:

– هو عم إبراهيم فين؟

فقالت بِلهجة هادئة وبسيطة:

- فى الشُغل ياحبيبى..كُنت عايزه فى حاجة؟

انتابتنى القُشعريرة وانا أراه امامى سَاقطاً على الأرض بِلا حراك وزوجته تنفى وجوده فى المترل..وقفت ثوانٍ أمامها ثم تراجعت خطوتين للوراء أمام ما رأيت!..لقد رأيت أم خالد تخرج من الغُرفة المُقابلة للصالة ترتدى ملابس مُختلفة وتتجه بخطوات قَلِقة ناحية عم إبراهيم الساكن على الأرض بِلا حراك..بَدأت قدماى فى الارتجاف مما أرى أمامى..فأنا الآن أرى اثنتين مِن "أم خالد"؛ واحدة تبتسم لى وتبادرنى الحديث بهدوء وثقة..وأخرى مُتكئة على رُكبتيها أمام زوجها على الأرض تبكى..قَاطعت صمتى وذهولى بِسؤالها الذى يحمل لهجة الأم:

- مالك يا يوسف!..شكللك تعبان؟

لم أُجب..وربما لم أسمع ما قالته جيداً.

- يوسف!!!

نظرت لها بجفون تأبى عن تنغلق..و لم أُعلق فقالت ثانية:

- مالك يا يوسف؟

- لا مفيش.

كانت لهجتى متوترة .. وقلبى لا يتوقف عن تَسارع النبض .. فقررت أن أنهى اللقاء:

- عايزة حاجة يا طنط؟

-عايزة سلمتك يا يوسف..سلام.

قالتها وأغلقت الباب.. وعدت إلى منزلى مُندهشاً مما رأيت .. عادت الرائحة الزكية لتسكُن أنفى مجدداً، ظللت مأخوذاً لبعض الوقت .. حتى قاطع والدى حبل أفكارى:

-يوسف.

نظرت له فأكمل:

-كُليتك إمتى؟

أجبت وأنا أسترجع المواعيد التي طارت من عُشّ عقلى وأجبته:

-بعد بكرة!

-طيب..شِد حيلك.

-حاضر.

ثم سألته بلهجة حاولت أن تبدو طبيعية:

-بابا..تعرف عم إبراهيم اللى قدامنا؟

- آه .. ماله؟

- هو بيرجع إمتى من شغله؟

نظر والدى للساعة المُعلقة على الجدار وأجابنى:

- على 4 العصر.. إشمعنا؟

أجبته متصنعاً الحقيقة:

- أصل هو قال لي أعدى عليه النهاردة عشان عنده كتاب كنت

عايز آخده منه أقراه.

قال والدى:

-زمانه جى.

كانت الساعة الرابعة إلا الربع .. جلست قُرابة الباب حتى استمعت لِصوت خطوات أقدام على السُلم .. فَنظرت بواسطة العين السحرية على "عم إبراهيم" يصعد السُلم ويفتح باب شقته فى هدوئه المُعتاد .. ازدادت الرائحة قوة .. أحسست أن الرائحة تنبعث من عم إبراهيم نفسه .. ثم عُدت لِغرفتى مذهولاً وقلقاً.

مرت بقية اليوم كالمعتاد دائماً .. ولكن الرائحة وعلامات الاستفهام لم تُفارقانى .. حتى أتى المساء .. فتحت حاسوبى الشخصى وبدأت بالعبث بين صفحات الإنترنت باحثاً عن إجابة مُقنعة .. حتى عثرت على بعض التجارب الغريبة التى حدثت لبعض الأشخاص المُتعلقة بالظواهر المجهولة المُسماة (تجسيد الصورة الذاتية):

كتبت السيدة.(جين .دي) : " أعتقد أن لدي قدرات نفسانية

غير عادية، فأنا أشم رائحة الموت من حول الشخص الذي سيموت، على الرغم من أنني لم أجد تفسيراً لتلك القدرة لكن دائماً ما يكون حدسي صادقاً، ومنذ فترة قريبة جداً كانت لي تجربة في غاية الغرابة، كنت أقف أمام مرآتي وفجأة شعرت أن أحداً ما في الغرفة فالتفت حولي فرأيت نفسي أرتدي ملابس مختلفة تماماً عن ما ألبسه وعلى وجهي ابتسامة كبيرة ا، ثم سرعان ما تم نقلي إلى المستشفى".

جعلتني تلك السطور أتيقن أن ما يحدث لي له علاقة بتلك الظاهرة المجهولة (تجسيد الصورة الذاتية)، ولكني أرى الآخرين .. ولم أرَ نفسي! .. ثم عُدت لعقلي مجدداً..ماهذه الخرافات ؟!..لابد أن ما يحدث لي له تفسير أكثر واقعية.. أنا طالب جامعي مُتعلم فى السنة الثالثة في كُلية الآداب..كيف لى أن أصدق ذلك الكلام الذى لا يُعقل!..أحسست ببعض الراحة عندما ردّدت تلك الكلمات .. ثم خلدت للنوم الذى لم يُمهلنى فرصة للاستسلام إلا بعد مُضي حوالي ساعتين .. لأستيقظ فى اليوم التالى على صراخ قادم من شقة "عم إبراهيم" .

يتضاعف الخوف فيك .. عندما تقتحم فتاة مدينتك.

{3}

ظلت الصرخات تتلاحق من مترل عم إبراهيمن وظللتُ على سَريرى أرتب ما يحدث مُنذ أن رأيت القطة حتى الآن .. تذكرت ما قَرأته فى اليوم السابق وبدأت بِربط الأحداث .. هل حقاً أصبحت أشعر بمن سيموت؟!..هل تنبعث منه تلك الرائحة لتسكن أنفى أنا دون الجميع؟!..لماذا أنا؟..مهلاً !!! ..لقد اختفت الرائحة!.

قُمت من جلستى قاصداً الحَمام لأغتسل .. رأيت أمى تقف خلف باب الشقة تستمع للأصوات القادمة من شقة عم إبراهيم فقلت لها:

- عم إبراهيم مات.

نظرت لى بِتعجب وقالت:

- وانت عرفت منين؟!

تأرجحت الأفكار فى رأسي وقلت لها بصوت هادئ وعيناي تتحاشيان عينيها:

-صوت الصَريخ جي من شقتهم.. أكيد هو اللى مات.

تجاهلت نظرة أمي واتجهت للحَمام.. اغتسلت وذهبت مع أبي وأهل عم إبراهيم وبعض أصدقائه إلى المقابر، وفى المساء قدمنا واجب العزاء.

•تركت القلم بعد ساعات من الكتابة واستلقيت على الأريكة فى مُحاولة للنوم.. ساعات من الكِتابة كافية لِجعلى فاقداً للتركيز ولِتمنح تذاكر مجانية لِلصداع بالتحول داخل رأسي بحرية، مما جعلنى أُشعل سِيجارة لعل الدُخان يَطرد الصُداع، دقائق ورن هاتفى المحمول فالتقطه من على الطاولة أمامى لأرى اسمها ورقم هاتفها الذى صِرت أحفظه كما تحفظ الأم وجه طفلها الوحيد..نظرت للهاتف قليلاً أردد اسمها مراراً "حنين" ياله من اسم يحمل المعنى

الذى يجتاحنا جميعاً (الحنين الى الماضى_الحنين إلى الأصدقاء_الحنين إلى من ماتوا..الخ).

أطفأت هاتفى ليعود كما كان وقت تصنيعه (جُثة بلاستيكية هامدة).. لِم العجلة يا حنين!؟.. فغداً سأكمل ما أكتبه.. فالقادمُ للكِ .. لعله يظهر !.

مضت دقائق أحاول فيها الاستسلام للنوم .. حتى انحاز لرغبتى، فتحت عينى فى الصباح واغتسلت وأكلت بعضاً من الجبن الأبيض ثم اتجهت للورق على الطاولة وأكملت ما بدأته:

اليوم الأول .. السنة الثالثة فى الكُلية.. دخلت من باب الكُلية بعد أن أظهرت للأمن "كارنيه" السنة السابقة .. لابد أنها سنة مُمِلة كسابقتها لذلك يُدخلوننا بالكارنيه القديم ..لم يكُن الاختلاط بالطلاب من هواياتي، كُنت أراهم تافهين بِدرجة العُلماء .. فكان هناك عُلماء الأزياء، تلك الطالبات التى لا ترتدي طاقماً مرتين فى نفس الشهر ودائما ما تتفاخر بثمن ما ترتدى وكيف اختارته بين مِئات الأطقم .. أما علماء الأزياء من الرجال فهم دائماً يحرصون

على ارتداء نظارات الريبان السوداء أو المُناسبة حسب البنطال الجينز أو الباجى والقميص أو التيشرت..يصنعون بشعرهم بمساعدة "الجيل" ما عجز عنه فنان تشكيلى بالصلصال، ولا ننسى عُلماء الرومانسية الذين طافوا العالم بحثاً عن نصفهم الثانى، والذين دائماً ما كانوا من بين "علماء الأزياء" وينتهى الأمر بعد شهر (إن دام شهراً) بالفشل ليبدأوا رحلتهم بين صفحات الإنترنت بحثاً عن ما يناسبهم من عبارات الحزن والشفقة ليغزو بها مواقع التواصل الاجتماعى.. أو بعض الأغانى التى تُعبر عن حالتهم لتكون Sound Track لحياتهم البائسة.

بدأت أطوف بين الطلاب ألقي على من أعرفه التَحية التى تتكون من ابتسامة مع هزة رأس بَسيطة وبعض الكلمات أتمتم بها، أحسست بِطرق على كتفى الأيسر من الخلف.. فالتفتُ لأجد فتاة أقصر منى بعض الشئ .. قمحية اللون.. لها عيون سوداء تجعل باقى الألوان تخجل من نفسها وتُحسن من أدائها.. قالت بصوت هادئ

-لو سمحت..تعرف مدرج 2 منين؟

-فى المبنى الكبير..الدور التانى.

اقتضب وجهها فجأة وقالت بلهجة غاضبة:

-أتصدق إنك قليل الذوق ؟!

قلت مستفهماً:

-ليه؟!

-تعالى وصلني، أنا جديدة هنا..

-اتفضلى حضرتك !

قلتها وأنا أبسط يدى باتجاه المبنى مُبتسماً مُتعجباً.. فَضمت الاسكتش لِصدرها مُحتضنة إياه بيديها مُبتسمة .. ومَشينا ناحية المُدرج.. سالتنى عن اسمى وعن سَنى الدراسي فأجبتها وسألتها عن اسمها فقالت "حنين" أحببت الاسم كثيراً.. وما إن وصلنا إلى المدرج حتى قالت لى بلهجة حازمة:

--حاخلص المُحاضرة وارجع ألاقيك فى كافتيريا الكُلية.. تمام؟

غضبت قليلاً من طريقتها فلستُ حارسها الشخصى، وقلت:

--حاضر.

ابتسمت!..وانصعتُ لِطلبها..لا أعلم لماذا وافقت؟..ولكن شيئاً ما بهذه الفتاة يجعل الرفض أمراً مستحيلاً !

مرت ساعة وأنا أنتظرها فى الكافتيريا أحتسى فِنجان قهوتى الذى يصنعونه فى فناجين كرتونية وأدخن السجائر..حتى ظهرت أمامى:

-يوسف!

-إيه يا حنين؟

-بتشرب سجاير!..انت مُقرف..حتحضر محاضرات؟

-لا..مليش نِفس.

-طب يلا بينا نروح..مفيش حاجة نعملها.

كنت أريد المكوث فى الكُلية أكثر من تلك الساعة..ولكنى انصعت لطلبها مرة ثانية..كم أكره نفسى عندما أنفّذ ما يطلبه منى الآخرون..ولكن هذه المرة كُنت فرحاً.

مر شهر ولا أقضى وقتى إلا معها..كنت أتعلق بها يوماً بعد يوم .. فى هذا الشهر شممت الرائحة 4 مرات، مرة فى الكُلية وجاءنى

خبر موت إحدى العاملات فى شئون الطلبة بعدها بيوم.. و3 مرات فى 3 شوارع مُختلفة تتابع بعدها بأيام موت 3 أشخاص..كُنت أعلم من سيموت.. حتى وإن كنت لا أعرف اسمه..كُنت بمجرد أن أرى وجهه وأشُم الرائحة المُنبعثة منه كان يأتينى خبر موته بعدها بأيام وربما ساعات..كدت أجَن أحياناً عندما تأتينى الرائحة..ولكن هونت "حنين" عليّ الكثير .. كنا نتمشى يومياً، أوصلها إلى بيتها .. نتحدث فى عدة أشياء.. بل تحدثنا فى كل شئ تقريباً.. وأحياناً نمشى بلا كلام .. كانت جميلة بعَينى لدرجة يصعُب وصفها .. كانت تحمل مزيجاً رائعاً من المرح والطفولة والعيون الصافية الهادئة والملامح الجادة وقت الشدائد.

فى أحد الأيام كنت أوصلها إلى منزلها كالعادة .. أرتنى أثناء الطريق صوراً لعائلتها (والدها وجدها وأخيها الصغير "علي") وقالت لى إنها لا تحب والديها بقدر ما تُحب جدها (حسن) الذى يتعدى عمره الـ70.

وصلنا عند أول شارعها لأرى جدها يمشى ناحيتنا ببنطاله الجينز الواسع والبلوفر الأبيض ونظارته الطبية الكبيرة كما رأيته فى الصورة..أشرت بإصبعى عليه وقلت لحنين:

-مش ده جِدك؟

-فين ده؟!

انتابتنى القشعريرة تابعتها الرائحة..كُنت متأكداً أنه حقيقى حتى عبر أحد المارة خلاله.. ثم ظهرت خلفه سيارة "نصف نقل" بيضاء تعبر خلال المارة ناحيته..قالت لى حنين بلهجة قلقة:

-مالك؟!

-مفيش.

-مبحلق فى إيه..وشكلك مخضوض؟

تجاهلت ما قالت وتابعت المشهد أمامى..حتى صدمته سيارة النقل من الخلف فى جانبه الأيسر جعلته يترنح ثم يسقط بلا حراك .. واتجهت السيارة نحونا بسرعة هاربة.. وقفت بلا حراك أتابعها وهى تقترب .. فكرت فى أن أقفز مبتعداً ولكن تراجعت عن الفكرة، فإن كانت مُجرد هواجس فلن تصدمنا .. اقتربت السيارة أكثر فأكثر حتى صار بينها وبيننا أمتار قليلة..فبحركة غير مُرتب لها دَفعتُ حنين بعيداً عنى .. وأغمضتُ عينىّ أمام السيارة التى لم تهدأ سرعتها حتى عبرت خِلالي، فقالت حنين غاضبة:

-مالك يا يوسف؟..وإيه اللى انت عملته ده؟

-أنا آسف..ماكانش قصدى.

نظرت لى بغضب يُضاعف من جمالها وقالت:

-طيب..سلام..

قالتها ورحلت قاصدة منزلها..فلم أمنعها.. وعُدت إلى منزلى حاملاً الرائحة بين شُعيرات أنفى.. سيموت جدها قريباً.. لولا أنني لازلت أشم الرائحة لكنت تأكدت أنه الآن ميتاً.. فكرتُ كيف أُخالف القدر.. كيف أجعله لا يموت.. حتى وصلت لفكرة .. سأبقى فى الشارع الذى سيموت فيه حتى أمنع الحادثة من الوقوع .. ارتديت ملابسى مُسرعاً وأخذت بعض النقود الاضافية مِما أختزنُ عادةً فى دولابي .. وقررت أن أمكُث ساعات وربما أياماً على الكافتيريا الموجودة بِمنتصف الشارع حتى يظهر جدها من جديد أمامى فأمنع الحادثة.

مرت ثلاثة أيام .. اتصل بى مُصطفى يسألنى عن غيابى فأجبته متعللاً بمرضى..كذبة بيضاء.

واتصل بى والدى فقلت له إن مُصطفى مريض ويحتاج لِرعاية نظراً لِغياب أمه المتوفاة منذ سنوات..سخر منى والدى كما هو المُتوقع وقال "- وانت حتغسله هدومه ولا حترضعه" ..واتصلت

بى "حنين" تسألنى عن غيابى من الكُلية فقلت لها إننى مريض ..

تابعت حركة المارة فى الشارع حتى ظهر الجد فى مُنتصف اليوم الثالث .. يمشى ببطء مُرتدياً البنطلون الجينز الواسع والبلوفر الأبيض..

لسنا إلا أحجاراً مصفوفة أمام بعضها البعض تنتظر السقوط لتُسقط ما يليها .

{4}

لو عاد بى الزمن لمزقتُ صور أهل "خنين" التى أرتنى إياها واحدة تلو الأخرى.. ربما ماكُنت لأشم رائحة الموت مُنبعثة من جدها..لو كُنت أجهل وجهه لكان الأمر هيناً.. "من قال إن الجهل نقمة ؟! .. أحياناً تكون النعمة الوحيدة الجهل".

تركت 10 جنيهات على الطاولة حساب الشاى والقهوة والتقطت أشيائى بسرعة واتجهت ناحيته.. أتابع بعينى السيارة التى لم تظهر بعد.. أوقفته فى الشارع وقلت بلهجة سريعة:

-لامؤاخذة يا حج عايزك فى كلمتين.

نظر لى مُطولاً وقال فى تعجب:

-عايزنى أنا يابنى!..عايزنى فى إيه؟

-موضوع شخصى مش حينفع نتكلم فيه واحنا واقفين.

لمحت السيارة قادمة من بعيد..تقترب شيئاً فشيئاً..فقلت مُتلهفاً:

-مُمكن نُقعد فى حِتة ياعم حسن؟

-وانت عِرفت اسمى منين؟!

-مش وقت أسئلة خالص يا حج.

قُلتها والتقط كُرسيًا من البقال المُجاور بدون أن أستأذن ووضعته على الرصيف المُجاور لنا وقلت له:

-تعالى اتفضل يا حج نِتكلم.

امتزج وجهه بالغضب والذهول معاً وضرب كفاً بكف وتمتم ببعض الكلمات ثم قال:

-انت مجنون يابنى!؟

-ياحج أنا طالب إيد حفيدتك حنين.

لا أعلم لماذا قلت ذلك !..ولماذا كان ذلك الأمر المُستبعد عن عقلى بِأميال أول ما خطر له واشترك معه لسانى فى الكَذبة .. ربما لانني فى أول الأمر وآخره أفعل ذلك لأجلها، لان وجهه بعض الشيء ثم تقدم بخطوات بطيئة ناحية الكرسى.. أمسكت بيده وأنا أتابع السيارة التى صارت قريبة منا.. حتى جلس على الكرسى وقفت بجواره ومرت السيارة بِسلام، وكأن طناً من الأسمنت الجاف قد انزاح من فوق صدرى.. أخذت نفساً عميقاً أخرجته بزفير طويل مُريح، لقد مرت العاصفة بلا أضرار.. بلا خسائر بشرية .. شممت رائحة اللحم المشوى منبعثةً من المطعم الذى يحتل ناصية الشارع .. خطر ببالي أن أدعوه للطعام ولكنى تراجعت عن الفكرة حقناً لِتزيف الأموال، ولكن مهلاً!!!.. لقد اختفت رائحة الموت ! .. اتسعت عيناي وارتجفت أطرافى للحظة ودقات قلبى تتسابق .. نظرت لعم حسن لأجده مُتكئاً على الكرسى يغط فى نومٍ أبدى عميق لن يستيقظ منه إلا عندما يشاء الله ذلك .. لقد رحل!.

لم أشعر بقدميّ إلا وأنا أمشى مبتعداً أتصنع اعتيادية الموقف فى ذهول حتى عبرت الشارع.. لقد رحل!..كما رحل عم إبراهيم

ومن قبله القطة وبعدهما أربعة أشخاص والآن عم حسن..لقد حاولت أن أنافس القدر..لا! .. بل حاولت أن أمنعه من الحدوث ولكن بلا جدوى، شعرت بالبرودة تجتاح أناملى و لم أشعر بنفسى إلا وأنا أجلس على إحدى الصُخور أمام البحر أتابع الأمواج وأسترجع ما حدث حتى أستوعبه .. تدفق الأحداث جعل عقلى مُشوشاً وتزاحُم الأفكار فى رأسي جعل أجهزة الاستقبال في وضعٍ لا تُحسد عليه.

لقد حاولت يا حنين..حاولت ولكن لا سُلطة لى أمام القدر. عُدت من شرودى إلى منزلى ومنه إلى غرفتى بدون أن ألتفت لأحد فى المنزل .. وكأنهم أصنام تُزين معبدى.. استلقيت على سريرى أحملق فى اللاشيء..حتى نِمت.

إن كُنت تخشى شمس الواقع فيكفيك قمر الأحلام.

لقد كان حلماً غريباً!..لازلت أتذكر كل تفصيلة صغيرة فيه .. وكأنه صورة اعتدت على التقاطها آلاف المرات .. رأيت نفسي واقفاً فى مكان لم أستطع أن أميزه، به بعض أثاث شقتنا القديمة

وكرسيين من المقهى الذي كُنت أمكُث فيه .. وأوراق أشجار مُتناثرة على الأرض حولى.. كنت أقف مكاني بلا حراك حتى سمعت صوت خطوات تقترب مني شيئاً فشيئاً.. وبدأت أشعر بوجود غيرى فى المكان.. التفت لأجد عم إبراهيم يمشى فى ثبات وبيده حقيبة سوداء دائماً ما كان يحملها معه وهو عائد من عمله .. اقتربت منه أناديه ولكنه كان كالأصم!.. لم يشعر بوجودى حتى اختفى فى الفراغ.. وظل صوت الخطوات يقترب.. وسمعت صوت تخبط نرد لعبة (الطاولة) والتفتُ لأجد "عم حسن" جالساً على أحد الكرسيين أمام شخص وهمي.. اقتربت منه ولكنه كان يختفى تدريجياً حتى تلاشى.. وقفت مشتتاً ووقع الأقدام يقترب حتى ظهر أمامي من اللاشيء شخصٌ!.. لم يكن شخصاً لقد كان "أنا" !!. رأيت نفسى واقفاً مبتسماً فى ثبات.. أرتدى زياً أسود.. تشبثت أقدامى بالأرض، ربما نبتت لقدميّ جذور تلتصق بباطن الأرض.. لا أستطيع الحراك مذهولاً مما أرى.. حتى قاطع ذهولى ذلك الـ"أنا":

-عايز تمنع القدر؟

- إنت مين؟

ضحك كثيراً ثم أكمل:

-مش عارف نفسك؟.. ماجاوبتنيش عايز تمنع القدر؟

-أنا حاولت.

-مش مطلوب منك تحاول..مطلوب منك تراقب.

-يبقى قدامى شخص بيغرق ومامدش إيدى؟

صرخ بى:

-عشان ده قدر !..

ثم أكمل بصوت هادئ:

-منقدرش نتحكم فيه..متقدرش تمنع عزرائيل يقبض روح..مالكش سُلطان عليه.

-واشمعنا أنا اللى أراقب؟

ابتسم وأردف:

-قدرك.. ماتقدرش تغيره.

أحضر أحد الكرسيين من اللاشيء ووضعه بجهة عكسية وجلس عليه ثم أشعل سيجارة وقال فى صوت واثق:

-إنت عارف إنت عملت إيه النهاردة؟

-منعت شخص يموت بحادثة عربية.

-وعاش؟

وضعت عينيّ في الأرض فأكمل:

-مات..مات يا يوسف..عارف إيه قصة العربية؟

هززت رأسي بالنفى فأكمل:

-العربية دى صاحبها شغال فى تجارة السلاح.. والحكومة مش

عارفة تجيبه.. باللى انتِ عملتِيه ده خليته يهرب للأبد.

هززت رأسي بالتعجب والاستفهام وقلت متسائلاً:

- إزاى؟

- لو ماكنتش اتدخلت فى طريقة موت الراجل ده..كان زمان "عصام البقال" أخد نمرة العربية وبلغ عنها، وكان صاحب العربية فى نفس اليوم فى السجن.. عرفت حجم الغلطة اللى عملتها؟

- يعني واحد يموت عشان التانى يخش السجن؟

-كدة كدة كان حيموت..بس مات من غير فايدة..وانت اللى منعته يموت بفايدة..منعت توابع الأحداث..سيب التوابع تِكمل للآخر حسب المكتوب.

قالها وشعرت بصعقة خفيفة تجتاح جسدى واختفى كل شئ حولى تدريجياً، نظرت لقدمى المثبتة على الأرض لأرى القطة ذات الحلقة السوداء تدور حولها.. ثم نظرت لى مطولاً وزمجرت فى غضب جعلنى أستيقظ فزعاً..ورحت أردد بعض الآيات من القرآن

الكريم وأنا أرتجف.

• أمسكت برأسي من فرط الصداع.. جلعنى أخرشج سيجارة من علبتى وأشعلها.. شردت قليلاً فى اللاشيء حتى أحسست أن هناك من يتجول فى الشقة.. ابتسمت فى ثقة وصمت.. وأسندت رأسي على الأريكة.

"لقد اقترب موعد ظهورك..كم سأسعد بلقائك ثانيةً.. أدركت منذ البداية أن الكتابة ستجعلك تظهر عاجلاً أم آجلاً فى عالم الواقع".

أطفأت سيجارتى وشرعت فى تكملة ما أكتب.

من قال إنى رأيت الجنة يوماً؟.. لستُ محظوظاً كآدم.

{5}

لم أعتد أن أشتاق لأحدهم.. فليذهبوا إلى ما وراء الشمس فهذا لا يعنيني.. ولأكونَ واضحاً أكثر.. فليذهبوا جميعاً إلى ما وراء الشمس عدا حنين!.

مر أسبوع كامل بعد وفاة جدها، وكان من الطبيعي أن تغيب عن الكلية طوال تلك الفترة، أحسست بِضيق عندما حدثتها خلال الأسبوع لأقدم واجب التعازي وبعض كلمات الرِثاء التي لا تفنىَ ولا تُستحدث من عدم.. وعدتني أن تخرج من حالة الحزن التي بها قريباً .. وأنا على يقين تام بأن قريبها بعيد..كُنت أشعر فى بعض الأوقات أنني من أسباب موت جدها، ولكنني كنت أدفن هذه الفكرة كلما تذكرت ذلك الحلم "–مانقدرش نتحكم فيه..

((ماتقدرش تمنع عزرائيل يقبض روح..مالكش سُلطان عليه.))

كانت هذه الجملة كفيلة بأن تدفن فكرتى للأبد،طلبتِ الإذن بالخروج من مُنتصف المحاضرة خاصة بعد شرودي لنصف ساعة بعيداً عن موضوع المُحاضرة، و"اسكتشي" الذى ظل كما اشتريته عدا بعض الخطوط والرسومات غير المفهومة إنتاج الملل.

خرجت من المدرج وجلست على أحد مقاعد كافيه الكُلية..

أخرجت هاتفى وطلبت رقم حنين فلم تُجب كما توقعت..

شعرت بالضيق من اتصالى وليس من عدم ردها.. فمُنذُ متى أهتم لحال إحداهن؟! وما هذه الفتاة يجعلنى أهتم لحالها!؟استبعدت الشعور بالذنب تجاه موت جدها واستبعدت صداقتنا ليبقى أمامى الاختيار الذى كُنت أخشاه..(لقد وقعت فى سرداب حبها).

لعنتُ نفسى مرات تلو الأخرى على هذا التفسير، ولكن تلك الصخرة التى سكنت فوق صدرى مُنذ أن غابت عن ناظري أكدت لى هذا التفسير.

وبقى السؤال المهم..(لماذا هى؟)

بحثتُ عن الإجابة لأجد السؤال الأهم..(ولماذا ليست هى؟)

ووجدت الإجابة الوحيدة للسؤالين..(لأنها هى !).

خرجت من باب الكُلية واتصلت بـــ"مُصطفى" أطلب لقاءه

حالاً .. وعندما التقيته جلسنا على إحدى الكافيهات القريبة منا؛ وبدأت بِسرد قِصتي مع حنين كاملة.. عدا ما ينتابني من رؤى وهواجس.. فأسند رأسه على الكرسي وأخذ نفساً عميقاً وبدأ يغني بصوته الأجش:

-وإن لقاكم حبيبي سلمولى عليه.. طمنونى الأسمراني عاملة إيه الغربة فيه ؟

-صُوتك شبه وشك !

-بُص للمعنى ياجدع ..طمنونى الأسمراني عاملة إيه الغربة فيه..

ياخى عبحليم ده كان أسطورة.

-وبعدين طيب!..حتقضيها هزار؟

-أنا مش باهزر ياجو..إنت اللى مش فاهم المعنى.

-فهمنى ياعم نِزار.

-الغُربة فى الجملة مش معناها السفر.. معناها البُعد مش شرط سفر بقى ..المهم إنها بعيدة عنك وانت قلقان عليها.

دخلنا فى صمت استمر لثوان قبل أن يتابع دندنة الأغنية وأنا

أتابعه بسخرية حتى قاطع صمتي:

-شُفت بقى إنك بتحبها.. تقدر تنكر إنك ربطت كلمات الأغنية بصورتها فى دماغك؟

ابتسمت فى صمت وقلت له بهدوء:

-طيب..وبعدين برضو؟

-قول لها.

قلت له بسخرية:

-فعلاً أنا من غيرك ماكُنتش عارف حاعمل إيه؟!..يابنى أنا مش عارف مشاعرها إيه من ناحيتي.. إنت فاهم؟

- إوصفها لي يا جو وأنا حاقولك تقول لها إزاى؟..أنا خِبرة فى الحريم.

ضحكت ثم أكملت الحديث وصورتها فى ذهنى:

-بص يا مصطفى.. هى قصيرة شوية..لونها خمرى..

قاطعنى قائلاً بلهفة:

-حبيبى يا أسمرانى.. كمّل ..

- عينيها سودا..وملامحها زى ما تكون مرسومة كدة..عارف الأطفال لما بتـــ...

انتبهت لسردى فى الوصف..وانتبهت أنني أدخل نفقاً مُظلماً.. لا أستطيع وصفها.. فقطعت حديثي قائلاً لُمصطفى بيأس:

-مش عارف أوصفها !

-فاجئها يا جو.. خرجها من اللى هى فيه.. رجعها زى أول مرة شفتها فيها.. تعرف تعمل كدة؟

*شعرت ببعض الخيالات تمر من أمامى جعلتني أتوقف عن الكتابة . نظرت للساعة لأجدنى قد تجاوزت الساعتين أمام الورق أكتب،

ثم قرأت كُل ما كتبته دفعة واحدة.. لأشعر باقتراب موعد ظهوره كلما قرأت حرفاً.. وأكملت الكتابة..

بعد ساعات من الحديث مع مصطفى عن حنين.. اقتنعت بفكرة أن أصارحها، ولا بأس إن كنت سأصارحها بطريقة سينمائية استجمعتها من عدة أفلام قد رأيتها سابقاً.. اتجهت إلى إحدى الكافيهات وأعطيت لأحد العاملين بها 20 جنيهًا ووعدته بمثلها عندما تأتى صاحبة المفاجاة فى الغد..

وفى اليوم التالى اتصلت بحنين فأجابت بصوتها الذي يراقص أذنى:

-أيوا يا يوسف؟

-لازم أشوفك دلوقتى حالاً.

-فى حاجة ولا إيه؟

-فى ورق محاضرات جبتهولك لازم تذاكريه عشان فى امتحان لدفعتكو بكرة.

كانت هذه الكلمات كفيلة بإنزالها من بيتها.. قابلتها ومشينا

بخطوات هادئة إلى الكافيه..وما إن دخلنا حتى رحب بنا العامل الذى اتفقت معه.. سلمت عليه ودسست فى يده 20 جنيهًا أخرى .. وجلسنا على الطاولة التى اتفقت معه عليها مسبقاً.. دقائق وأخرجت من تحت الطاولة باقة من الأزهار وقدمتها لها وأنا أتحاشى النظر فى عينيها، وقلت بصوت مهزوز:

--حنين..أنا بحَبك!

نطقتها بصعوبة توقفت خلالها عقارب الساعة، وشبح الخجل يحوم حولنا .. احمرّ وجهها الرقيق.. وهبطت أمطار من المقطوعات الموسيقية الهادئة.. وتحول الكافيه لألوان هادئة بفعل نظام اللايت.. وقالت بلهجة طفولية:

– ده انت بارد.

بدأ نبض قلبي فى التسارع وتقلصت ملامح وجهي، وتراجعت بالكرسي خطوات للوراء أحاول ابتلاع ريقى، فأكملت حنين

بنفس اللهجة:

- ما انت عارف إني باتكسف.. تعمل كدة؟

قالتها ودفنت وجهها خلف باقة الأزهار.. ابتسمت وأشرت بيدى للعامل بالكافيه.. فبدأ وصلة الأغانى التى تحبها حنين.. كُنت قد سألتها سابقاً عن أغانيها المُفضلة و لم أتوقع يوماً أننى سأستخدم إجابتها هكذا.. دقائق وأتى العامل بكعكة صغيرة مكتوب عليها "حنين" وتاريخ اليوم.. كُنت قد اشتريتها سابقاً وسكيناً صغيرة ابتسمَت ودفنت وجهها بين كفيها وقالت بخجل:

- أنا كمان بحبك..بس فين الورق؟

- ورق!..ده انتِ باردة.

وضحكنا رغم سخافة ما قلنا..وياللعجب كان مضحكاً.

مر أسبوعان على علاقتنا أو أقل من ذلك بيومين..كانت علاقتنا جميلة وهادئة حتى ذلك اليوم:

استيقظت من نومي على رنة هاتفى ورقم حنين.. فضغطت زر استقبال المكالمة لأجد صوتها :

-انت لسه نايم يا أستاذ؟

-صباح الخير يا حنين.

-قوم يا حبيى..قوم يا أفندى يا محترم ذاكر.. امتحانك كمان شهر..

قُلت فى مرح:

-حتى يوم الجمعة يا حنين!

- آل يعنى بتذاكر باقية الأسبوع!

اتسعت حدقة عينيّ وأنا أتابع ما أرى.. لقد كانا أمامى.. حنين وشخص ما يقفان بظهرهما..

-وانت يا أستاذ مقضيها نوم واستهبال..

كان ذلك الشخص يترنح وكانت حنين تُمسك به من ذراعه تساعده على الوقوف..

-ألو!..رحت فين يا أفندى؟

حتى التفتا ناحية السرير.. لقد كان أنا!!!..ظلت حنين تسانده حتى لا يسقط.. نظر لها بعينيه نظرة لم أتوقع أن أنظر بها لحنين يوماً .. ثم أمسكها من رأسها الصغيرة وبدأ يُقبلها وهى تدفعه وتصرخ .. تحولت نظراته لغضب ثم أمسكها من رقبتها ودفعها على السرير بجوارى.. وانقض عليها وهو يخلع قميصه وظل صراخها بلا صوت..

- ألو!..يوسف..انت رحت فين؟

اندفعت من على السرير ناحيته ولكني اخترقته!..هذه الرؤيا خاصة بي..وبحنين.. أهذا ما سيحدث؟!!! بدأت عيناى باستدعاء الدموع وأنا أتابع مشهد اغتصابي لحنين أمامى..أغلقت عينيّ ووضعت يديّ على رأسي وبكيت كما لم أبكِ من قبل..

-يوسف !..انت رحت فين يا أستاذ؟

لو عاد بِك الزمن لتمنيت تقدمه ولو تقدم لتمنيت رجوعه!

{6}

لم أرفع يديّ عن عيني.. لم تتوقف دموعى لحظة عن استِتراف الماء من جسدى..كُنت مُغمض العينين وأرى كل ما يحدث حتى اختفيا كما تختفى بُقعة من النور طردها الظلام.. بدأت أستفيق رويداً زويداً ..بدأ المشهد بالاختفاء من رأسى عدا نظرة حنين وصراخها غير المسموع!..أراها أمامى تبكى، مهزومة، ضعيفة.. ضحيتي البريئة من ذنوب بنى آدم ترتجف خوفاً.: لم أستطع طرد صورتها من ذهنى المُشوش.. بقيتُ شارداً لساعة على السرير.. لم ألحظ هاتفى الذى رن مرتين.. وفى المرة الثالثة التقطته بين أصابعى لأرى رقم حنين واسمها.. ضغطت زر استقبال المكالمة بهدوء:

-ألو..

-فى إيه يا يوسف..مالك؟

-مافيش.

-انت فجعتنى.. على فكرة أنا تحت بيتك. إنزل.

مرت صاعقة كهربائية بجسدى جعلتنى أنتفض بقوة، ومر مشهد الاغتصاب أمام عينى قبل أن أقول لها بقلق:

-امشى!

-نعم!

صرخت بها وكأننا نتشاجر:

-بقولك امشي يا حنين..امشي!!!

وأنهيت المكالمة.. وقمت من جلستى أجمع ملابسى وبعض أغراضى فى حقيبة، وأخذت سكينًا صغيرة كانت أمى تضعها تحت وسادتى ولم أعلم لماذا كانت تضعها ولماذا أخذتها..دسست السكين بين ملابسي وتناولت الحقيبة بين يديّ وخرجت من الغرفة..غسلت

وجهى ويديّ بسرعة وقصدت باب الشقة..استوقفتني أمي:

-رايح فين يا يوسف؟

-خارج.

-بشنطة!..رايح بيها فين؟

-مش وقته يا أمي..أرجوكي سيبيني..

-مش حسيبك إلا لما أعرف مالك؟

صرخت بها..ولا أعلم هل استدعى ما حدث رد فعلى أو بماذا أشعر واتجهت ناحية الباب.. خرجت من المترل أركض ناحية الشارع لألمح حنين واقفة على ناصية الشارع.. ما ان رأتني حتى اتجهت نحوى بخطوات هادئة.. ونادت عليّ فتوقفت.. عادت صورها لذهنى ما إن سمعت صوتها.. التفتّ بهدوء لأجد الدموع تملأ فضاء عينيها الأسود كالنجوم، وقالت بقلق:

-مالك يا يوسف؟..وبتعمل معايا كدة ليه؟

صعدت الدموع لعيني وتحاشيت النظر لعينيها حتى سقطت بعض قطرات الدموع من عينيها.. فمسحتها بإصبعي وتمنيت لو لم يجف إصبعي لأيام وربما لسنين.. وتركت دموعي تنهمر على وجهي بلا بكاء.. وقلت لها بصوت متردد:

-سامحيني ياحنين.

-.........

أمسكت بيدي وقالت والبكاء أعطى لصوتها نبرة جميلة:

-أنا بحبك..وانت ماعملتش حاجة أزعل عشانها..بس مالك؟

كِدت أضمها بين ذراعيّ ولكن صورتها في عقلي منعتني قبل أن تمنعني نظرات المارة في الشارع.. فنظرت لعينيها الهادئتين هدوء مابين العاصفتين.. وقلت لها:

- أنا بحبك يا حنين..بس لازم أبعد اليومين دول.

-ليه؟!

-عشان بحبك!

قلتها وأفلتّ يدي من بين أصابعها الناعمة وأدرت وجهي مبتعداً بعد أن أقنعت وجهي بالرحيل.. ولكنى التفت لها مرة أخيرة وقلت وأنا أمسح بذراعى عينيّ من الدموع:

-أنا راجعلك.. بس سيبينى يومين..أنا عمرى ما حسيبك..

•صعدت الدموع لعينيّ من جديد كلما تذكرت صورتها.. لا أعلم لماذا كتبت ذلك الجزء مما حدث معى..لا أحب أن أذكر هذا الجزء بالذات.. ولكنه لن يظهر إلا بذلك.. بدأتُ أشعر بأنفاسه.. لا.. إنها أنفاسى.. لم أعلم أن رائحة أنفاسى كريهة بهذا الشكل.. اللعنة على النيكوتين.. مادمت اقتربت فلن أتوقف عن الكتابة..

•مكثت فى بيت مُصطفى بعد أن كذبت عليه وقلت إننى قد تشاجرت مع والديّ.. وتركت البيت لأيام..كذبة بيضاء أخرى .. يعيش مُصطفى وحيداً فى شقة من غُرفتين.. مما جعلنى أعتبر المنزل منزلي.. مرت ثلاثة أيام.. قاومت أفيون حنين الذى صار كالنمل

الذى يتسلل من تحت الجلد لينتشر فى باقى الجسد ولا يرحل إلا بجُرعة من عينيها.

فى الساعة الخامسة عصراً من اليوم الثالث جاء مصطفى من عمله مبكراً يحمل كيسًا بلاستيكيًا أسود.. سألته عن محتواه فأجابنى ببعض الأسماء التى كُنت قد سمعت بها سابقاً.. وعرفت لاحقاً أنها زجاجات خمر.. لم أتعجب إطلاقاً فأنا أعلم أن مصطفى من هواة الشُرب.. نصحته مراراً وتكراراً أن يكُف عن هذه العادة ولا حياة لمن تُنادى..جلس مُصطفى على الأريكة المقابلة للباب وأخرج زُجاجة خضراء كبيرة وتناول كوباً من على الطاولة أمامه وبدأ بسكب المشروب والشُرب بانتشاء..دعانى أن أشاركه تلك المرة فجلست بجواره وتناولت كوباً وسكبت بعض القطرات الصغيرة وذكرت اسم "الله" قبل أن أتجرعه..(يالى من متناقض)..ثم تجرعت عدة أكواب كبيرة نسبياً لما يتناوله "مصطفى" ..كانت المرة الأولى لى فى شُرب الخمر..كُنت قد جربت سابقاً سجائر الحشيش الملفوفة وسرعان ما وعدت نفسى بالا تتكرر.

دقائق وبدأ الواقع يمتزج بالخيال.. فرأيت حنين أمامى تلعب بالكرة..وإذ فجأةً تقودها الكُرة بعد ركلها إلى حُفرة مُظلمة

بمنتصف الطريق..حاولت أن أنادى عليها ولكن صوتى اختفى .. حاولت أن ألحق بها ولكنى كُنت مقيداً.. حتى سقطت فى الحفرة.. لأجد نفسى أصرخ بقوة أمام باب منزلى.. ما الذى جاء بى إلى هنا؟ وكيف جئت؟!..فتحت باب شقتى وتقدمت بخطوات بطيئة..لمست الأثاث مرات عدة لأتأكد أننى غادرت منزل مصطفى..كُنت أظن أنني تحت تأثير الخمر الذى جعل الرؤية أمامى تتضاعف..ولكني متأكد أننى بمنزلى الآن.. ويبقى السؤال كيف وصلت إلى هنا؟ ناديت على أمى وأبى ولكن بلا استجابة..رميت بنفسى على الأريكة دقائق حتى سمعت جرس الباب.. قمت من جلستى لأفتح الباب بصعوبة الجري على الرمال.. فتحت الباب وأنا أترنح لأجد حنين أمامى.. مرت صاعقة بجسدى ثانياً.. وجدت نفسي أسقط على الأرض بهدوء، ولكنها ساندتنى على الوقوف.. ظلت تتكلم معى بفزع.. وياللعجب لم أسمع كلمة!.. لماذا جئتِ يا حنين؟! قادتنى إلى غرفتي.. شعرت برغبة فى تقبيلها وأمسكت برأسها الصغير بين كفى..ولكن صورتها عادت إلى ذهنى.. فدفعتها بعيداً عنى بقوة.. فنظرت لى وقالت:

-يوسف!..انت شارب إيه؟

-إمشى ياحنين..إمشى دلوقتى حالاً.

كُنت أصرخ بها لأمنع ماسيحدث..كُنت أعلم أننى لن أستطيع أن أخالف القدر.. ولكنى فى تحدٍ معه الآن.. ولن أترك حنين ضحية ما سيحدث، ظللت أدفعها ناحية الباب وأنا أصرخ في وجهها حتى رحلت.. جلست بعدها على الأرض، وامتزج شعورى بين النصر والخوف والقلق.. أحسست باقتراب أحدهم منى.. تحاملت على نفسى وغادرت المترل..اتجهت لمترل مصطفى وأخذت حقيبتى .. ورحلت مرسلاً له برسالة نصية على هاتفه:

-(أنا فى شقتى القديمة)

وأرسلت رسالة نصية لحنين بالهاتف:

-(أنا ماحبتش حد قدك.. ولا ححب حد قدك.. لكن أنا محتاج العُزلة دلوقتى.. عشان أقدر أعيش معاكى دائماً)

واتجهت لشقتى القديمة.

فتحت باب شقتى القديمة فأصدر الباب صريراً بسيطاً، أدخلت أكياس الطعام والشراب وحقيبتى التى بها ملابس وبعض الأشياء التى تكفينى أسبوعًا على أقل تقدير.. وضغطت على مفتاح الإضاءة ليطرد النور الظلام الساكن فى أركان الشقة بهدوء ولطف..

عندما تصل للنهاية تأكد أنك على موعد مع بداية جديدة

{7}

تَركت القلم جانباً بعد أن فرغت تماماً من الكتابة.. ها قد انتهيت تماماً من دورى وعدت إلى نقطة انطلاقي، وبقى دورك.. فلتظهر الآن أمامى فقد طال انتظارى..

استلقيت على الأريكة وأغمضت عيني وفى بحر الصمت بدأت أسمع صوت خطوات الأقدام تقترب منى شيئاً فشيئاً.. أنا الآن على عِلم اننى بمجرد أن أفتح عيني سأجدك أمامى.. أنا الآن على استعداد تام لموجهتك.. لن أتركك تذهب قبل أن أجد الأجوبة المُلائمة لأسئلتى.. سمعت صوت صرير الباب.. اقتربت الخطوات أكثر.. حتى أحسست أنه يقف أمامى مباشرةً..كان ظله يحجب جزءاً من الضوء الذى أحسست بانخفاضه فجاءةً.. حتى سمعت صوت فتاة تنادى:

.-يوسف!

فتحت عيني لأجد فتاة في العشرينات ترتدي زياً أبيض وتُمسك بيدها بعض الأوراق.. نظرت حولي لأجد الغرفة تتلون باللون الأبيض مُتبدلة الأثاث بالكامل.. حتى الشبّاك الصدئ جديداً وكأن المكان قد تبدل فجاة.. نظرت للمكان بعيون تملؤها الدهشة حتى قاطعت دهشتي تلك الفتاة مجدداً:

-عامل إيه دلوقتي؟

-انتي مين؟!

بدون إجابة أمسكت بالأوراق من على الطاولة التي تبدلت هي الأخرى بجديدة وبدأت بتفحصها والانتقال بينها بملل وكأنها تقرأ جريدة للمرة الألف.. ثم أعادت الأوراق لمكانها الأصلي وقالت بصوت يملاؤه اليأس:

-وبعدين معاك ؟

لم أجب فأكملت:

-كتبت نفس القصة تانى!..مش كفاية النُسختين اللى معانا؟

-نفس القصة!

فتحت الأوراق التى بحوزتها وقالت وعيناها تتنقلان بين السطور:

-تقاريرك كلها إيجابية.. وماشى على العلاج بحذافيره.. لكن برضو زى ما انت.

-علاج!..هو فيه إيه؟

أخذت الأوراق التى كتبتها ووضعتها بين أوراقها واتجهت ناحية الباب يُصدر حذاؤها إيقاعاً منتظماً على الأرض.. نادت بصوت هادئ:

-دكتور نادر.

ثوان ودخل رجل فى الخمسين طويل يرتدى نظارات كبيرة

وقميصًا أبيض تُزينه بعضِ الخطوط الزرقاء الصغيرة بالطول..ومن فوق القميص جاكيت أبيض اللون..قالت له الفتاة:

-يادكتور التقارير كلها إيجابية..لكن نفس الموضوع تانى.

التقط من يدها الأوراق التى كتبتها وانتقل بينها بعينه والابتسامة على وجهه وقال لى بلهجة مَرحة:

-دى الطبعة الكام يا يوسف؟

لم أفهم ماقال.. لكنى فهمت أننى بإحدى المستشفيات..كيف انتقلت من منزلى القديم إلى تلك المستشفى؟..سألته بلهجة عصبية:

-أنا هنا من إمتى؟

-ست شهور..وعارف إنك حتسألنى ليه وإزاى؟..نفس أسئلة كل شهرين..حتى اللى بتكتبه مابيتغيرش، لا حرف بيزيد ولا حرف بينقص.

اقترب مني وجلس بجواري على الأريكة التي تبدلت لسرير تكسوه ملاءة بيضاء.. وقال بلهجة هادئة:

-يوسف لازم المرة دي تخف..انت مريض بالهواجس..وأنا مقدر اللي انت فيه.

-هواجس!

-تجسيد الصورة الذاتية.. ظاهرة مابتجيش غير واحد في الألف.. الظاهرة دي بتختفي فورًا..لكن في حالتك انت طولت وعلاجها إنك تواجه نفسك.. أنا في البداية ماكنتش عارف أشَخص حالتك، لكن اللي بتكتبه كل شهرين هو اللي شَخص حالتك.

-بس أنا شوفت ناس بتموت قبل معادها فعلاً.

-هواجس يا يوسف..انت ماشوفتش حد مات..انت وهمت نفسك إنك شفتهم.. الهواجس بتعمل أكتر من كدة.

-وحنين!

ـ إن قلتها حتى أشاح بوجهه للجهة الأخرى.. ثوان وقام من جلسته قاصداً الباب..استوقفته بلهجة عصبية:

-دكتور!!!

-فى شخص عايز يشوفك يا يوسف.

قالها وغادر الغرفة وظهر أمامى "مصطفى"، قمت من جلستى ونظرت له كطفل وجد أباه وسط زحمة المارة..نظرت للمرآة التى تبدلت بدورها لأخرى مُعلقة على الحائط لأجد شعرى أطول بكثير مما كان وكذلك ذقنى..اقترب منى مصطفى وفتح ذراعيه واحتضنني.

-مصطفى..هو إيه اللى بيحصل؟

-حمدلله ع السلامة يا جو.

- أنا مش فاهم حاجة؟!

جلسنا سوياً وبدأت الدموع تتخذ طريقها بين مُنحنيات وجهى .. سألته عن حنين فأجاب بهدوء:

-ماحدش يعرف عنها حاجة من بعد الحادثة.

--حادثة!

نظر لى بشفقة وقال وعيناه فى الأرض:

--حادثة اغتصابها يا يوسف..انت اغتصبت حنين فعلاً مش زى ما كتبت.

مَرت صاعقة بجسدى وتابعتها ضربات قلبى التى كادت تشق ضلوعى .. وضعت يدىَ على وجهى غير مدركٍ ما سمعت.. أحاول استيعاب ماحدث الشهور السابقة..وقلت لمصطفى فى محاولة لتفادى سهام الواقع:.

--انت كذاب!

- أنا عارف انك حتقول كدة..لإن ده نفس الكلام اللى بتقوله كل شهرين.. يوسف يوم ما روحت شقتك القديمة سبتلى رسالة.. فاكر.

- أيوا فاكر.

أخرج مصطفى من جيبه هاتفه وفتح الرسائل المُستقبلة ووضع بين يديّ الهاتف لأجد 3 رسائل تحمل نفس العبارة (أنا فى شقتى القديمة)..وأكمل كلامه:

--كل شهرين كانت بتجيلى ورقة جديدة.. أول ما تجيلى الرسالة

دى أعرف انك خلصت قصتك تانى وحتبدأ من جديد..انت فى دوامة يايوسف..ولازم تتعالج..

-حنين فين؟

-ماحدش يعرف راحت فين.. أنا حازورك تانى يايوسف..وأتمنى الزيارة الجاية تكون رجعت يوسف اللى أعرفه.

قالها وغادر الغرفة لأجدها تتحول تدريجياً لشقتى القديمة .. جلست على السرير الذى عاد مجدداً لشكل تلك الأريكة ونظرت للمرآة أمامى لأجد شعرى كما كان سابقاً..التفت حولى لأجده يقف مبتسماً أمامى.. لقد كان "أنا"، وقال بلهجة هادئة واثقة:

-سيب التوابع تِكمل يا يوسف..

-فين الحقيقة؟

-الحقيقة الوحيدة هنا إنك رافض الواقع..انت اللى ارتكب الخطأ ورافض يصدق..اللحظة اللى بتعدى مابترجعش.. بتتخزن.. سواء زرعت فيها وردة أو شيلت شجرة من جذورها.

-وحنين؟

أشار بيده إلى الكرسى المجاور لنا، لأجدها امامى جالسة على

الكرسي في هدوئها المعتاد.. مددت يدى فى حقيبتى وأخرجت السكين الصغير التى أخذتها معي من غرفتى وخبئتها عن ناظريه ..

فقال بثقة:

-سيب التوابع تِكمل حسب المكتوب.. مكتوبلك تِكمل الحكاية للآخر.. لوحدك.

اقتربت من حنين بهدوء ولمست وجهها بأصابعى.. وهمست فى أذنها:

-أنا آسف!

ثم التفتُ له قائلاً:

-علاجى الوحيد.. إنى أواجه نفسى بالحقيقة..

ابتسمت والدموع تنزل من عينيّ وقلت بصوت هادئ:

-شكراً..

ثم اتجهت بخطوات سريعة نحوه وأمسكت بكتفه الأيمن، وغرزت السكين في قلبه.. وبلا أى شيء..بلا ألم.. بلا خوف ولا حراك اختفى..

نظرت لحنين لأجدها تختفى أمامى وهى تبتسم.. ابتسمت لها وأحسست بجبل من الحديد يتزاح من فوق صدرى..نظرت حولى لأجد شقتى تتحول لغرفتى بالمستشفى..واختفت السكين من بين أصابعى..

{ تمت }

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/ahmed.zewail.92

https://www.facebook.com/ahmed.m.zewail1994

قال لى أحد أصدقائى سابقاً:
(إن النوم مُخدرات حلال!
فما إن تغب عن الواقع وتَدخل فى عالم الأحلام
تَعش ساَعات كأنها عُمر كامل
وتستيقظ بعدها إلى كابوس الواقع مُنتشياً
راغباً في العودة لعالم الأحلام
وتنتظر جُرعتك الثانية من النوم بفارغ الصبر).



